موسى جليل

شاعر الشهادة والحب والبطولة !

بقلم جليل كمال الدين

« الى الشاعر محمود درويش .. عنـوان الرجولة العربية .. تحيـة وفاء » .

ان اسم موسى جليل يقترن بمعـاني الرجـولة ، والحرية ، والحب ، والنضال ، وحب الوطن اللاهب . وعدا ذلك فهو يقترن دوما بالشعر النضالي ، والشعر الوجداني الانساني ، والشعر الواقعي الاشتراكـي . ان موسى جليل هو مفخرة ليس لشعبـه التتري السوفياتي فحسب ، بل هو مفخرة وأغنية مجد لكامل شعوب الاتحاد السوفياتي والبشرية التقدمية أيضا .

ان اسمه يرتبط بروح الشرق ، بروح شعبه المشرقي ، ولكنه في الوقت ذاته تتمجد به البشرية التقدمية ، المحبة للحرية ، جميعا في شرق وغرب .

ولعل القارىء العربي لم يسمع به ، أو سمع به لماما ، ولكنه ما أن يقرأ له أشعاره الوطنية ، والوجدانية ، والانسانية ، حتـى يقفز من الفرح والغبطة قائلا : أن هذا الشاعر قريب من روحنـا ، انه ينهل من ينبوعنا ذاته ، انـه عظيم وحبيب الـى القلب ! أو ان قلبه سينزوي ألما وتوجعا في تعاطفه مع تراجيديا الشاعر الكبيـرة . ولكنه في الحالين معا سيحب الشاعر بعمق .

لقد أعـدم الالمان الفاشست في ١٩٤٤ هـذا الشاعر الوطني الانساني السوفياتي ، كما كانوا قد أعدموا يوليوس فوتشيك مـن تشيكوسلوفاكيا ، وفاتبزاروف من بلغـاريا ، وتيلمان من المانيا ، وكثيرين من الكتاب والصحفيين والمفكرين المناضلين . ان قصـة عداوة الطغيان للفكر والفن والشعر لهي قصة معروفة تتكرر فـي كل عصر وكل جيل . فليس بالبعيد اغتيال فاشيست اسبانيا للشاعر الانساني الاندلسي فدريكو غارسيا لوركا ، وسجن الشاعر التركـي الكبير ناظم‌حكمت ، وملاحقة واضطهاد الشاعر التشيلي بابلو نيرودا ، وحبس الشاعر اليوناني منلاوس لاودمس وغير هـذا كثير . ان الشعب العربي يعرف بدوره ويذخر قائمة طويلة لضحايا الاضطهـاد من شعرائها وكتابها ومفكريها وخصوصا في عهود ما قبل انتصـار أنظمة التحرر الوطني .

— ١ —

لقد عاش شاعرنا ٣٨ عاما فحسب (كالشاعر العربي العظيـم بدر شاكر السياب) ، وحين اختطف الجلادون الفاشست روحه ، مات وهو يغني أغنية الحرية لا لشعبه وحـده بل للانسانية طرا . ان للانسانية كلها الحق في التمجد بهذا الشاعر العملاق . وللقارىء الآن أن يسأل : من هو هـذا الشاعر ؟ وما الذي يميز ابداعـه الشعري ؟ ولماذا لم يستطع الجلادون الابقاء عليه حيا ؟ وما الـذي يقربه الى شعـوب الشرق وروح الشرق ؟ وأخيرا .. كيف لنـا أن نفهمـه ؟

نبدأ بقصة حياته .

ولد الشاعر موسى جليـل في الثاني من شباط عام ١٩٠٦ (حسب التقويم الجديد الخامس عشر من شباط) ، في قريـة « موصطافينو » من أعمال منطقة « أورنبورغ » . وكان والده واحدا من منكوبي الاقطاع وضحـايا البؤس والحاجة ، وكان لا بد له أن يهاجـر الى « أورنبورغ » حيث التحق ابنه موسى بمدرسـة « الحسينية » الدينية . لكن الفتى لم يكمل دراسته هنا ، وسرعان ما اجتذبته الاعمال الثورية والنضالية في المنطقة في عامي ١٩١٧ — ١٩١٩ . كان أحد المناضلين الفتيان ضد أعداء الثورة . ومنذ ذلك الحين ، وفي بواكير تفتح موهبته الشعرية ، كانت أغنية النضال هي التي تترنم بها شفتاه . فقد جاء في العام ١٩١٩ الى هيئة تحرير جريدة « النجمة الحمراء » حاملا أشعارا له تحت عنوان «السعادة» . وقد نشرت هذه الاشعار تحت توقيع « جليل الصغير » .

وبعد موت الاب كان لا بد للفتى أن يعود الى قريته حيث لـم تمنحه طبيعته الثورية الفائرة لحظة هدوء وراحة . فهنا صار يجمع الفتيان وينظمهم ، وكانت منظمتهـم الاولى هذه تصدر جريـدة ، وتنظـم الاجتماعـات ، وتقـدم قطعـا تمثيليـة . ومفهـوم ان القطع التمثيلية تلك كان يكتبها جليل الصغير . وفي العـام ١٩٢٠ نظم الفتى جليل أول خلية للشبيبة في موصطافينو ، وكـان هو سكرتيرها . وما انفك يتقدم في أعمال منظمات الشبيبة حتـى صار عضوا ممثلا للمنطقة . ولكنه في الوقت ذاته كان يكتب الشعر ، ويقرأ بنهم كل شيء وقع بين يديه . ان الفترة الاولى من ابداعـه الشعري تعاصر المرحلة الاولى من نضاله الثوري ، وتمتد منذ ١٩١٩ وما قبلها بقليل حتى أواسط العشرينات . ومنذ ذلك التاريخ المبكر بالنسبـة للشاعر — حياة وابداعا — كانت الثورة وحب الحيـاة والايمان بالانسان تمتزج بشكل عضوي ورائع في نفحات شعـره الاولـى :

« كلا ! نحن أقوياء ، سنجد الطريق
لا شيء يمنع عنا الطريق
ما أكثرنا نحن الذين نسير نحو الهدف المشرق
اننا لا نستطيع أن لا نمضي الى هناك ! »

(من شعره في عام ١٩٢١)

وقد عاش الشاعر حياة ضنك وبؤس في صباه . وفي «أورنبورغ» كان لا يجد لنفسه مأوى ، ولكن سرعان ما امتدت اليه يد العون . فها هي ادارة جريدة « النجمة الحمراء » والكومسومول يساعدانه في تحصيله الدراسي ، فيهيئان له الدراسة في المدرسة الحربيـة المنطقية في « أورنبورغ » ، ومن ثم في دورات تربوية . ان الشعب لا يهجر ابنه ولا ينساه . وفي هذه الفترة ظهرت في أشعاره ألحان شرقية تجريدية صميمة ، تؤرخ لفترته الرومانسية وتأثره بشعراء الشرق أمثال حافظ وعمر الخيام . يقول الشاعر نفسه ، فيما بعد ، عن هذه الفترة :

« في العام ١٩٢٢ عدت الى الشعر من جديد وكتبت كثيرا . وفي هذه السنين قرأت الشعراء الاقدمين أمثال عمر الخيام ، وسعدي ، وحافظ ، والشاعر التتري ديردميند . وتحت تأثيرهم الرومانسي كتبت أشعارا خاصة » .

وفي خريف ١٩٢٢ ارتحل موسى جليل الى قازان ، وعمل في جريدة « تنارستان » ممتزجا بالاوساط الادبية هناك ، وعاملا في جرائد قازان وبالخصوص مجلة « بيزنك - يول » أي (طريقنا) . وهنا لم تكن رومانسيته الادبية محض رومانسية مجتلبة من شعراء الشرق الاقدمين ، وانما كانت أيضا حصيلة تأثره بتيار أدبي رومانسي في الفترات الاولى من تطور ونشوء الادب التتري السوفياتي . ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من التوجه ، فيما بعد ، وحتى في تلك المرحلة ذاتها ، نحو الشعب يستوحيه البطولة والالهام ويجد فيه المعين الاكبر لوجود الشاعر وقوة فنه الشعري . فكانت له قصائد وأشعار حول نضالات معاصريه ، والشباب المناضل ، والعمل .

وفي خريف ١٩٢٣ التحق الشاعر بالكلية العمالية . وقد أثرت عليه بيئته الجديدة تأثيرا بينا وقويا ، سواء كان ذلك في نموه الفكري أم في ابداعه الشعري الذي أخذ آنذاك ينحى منحى واقعيا . وحول هذا كتب الشاعر يقول :

« ان الدراسة في الكلية العمالية قد تركت ظلالها بشكل قوي ونافع في تطوري الابداعي .. لقد كان ذلك تحولا في ابداعي . ففي العام ١٩٢٤ صرت أكتب أشعارا بطابع مغاير تماما (يقصد لما قبل) » .

من هنا صار توجه الشاعر نحو الواقعية ، ومن هنا دخل النضال الثوري في حياة الشاعر الابداعية ، بعد ان كان واقعا موضوعيا بالنسبة له . هنا كرس الشاعر القسم الاكبر من شعره لنصرة قضية الوطن والنظام الاشتراكي الجديد في حروب التدخل . وهنا تصبح « أنا » الشاعر ملتحمة بقضية الجميع ، فيكون النضال وتكون التضحية بالنفس ويكون التكريس الكامل للذات في سبيل قضية الوطن والاشتراكية . وقد ظل هذا النغم الثوري يسري في كامل شعر الشاعر حتى مجموعته الاخيرة التي اختتمت عندها حياته وهي « دفتر مآبيت » - ومقصود بها دفتر أشعار الشاعر في السجن الالماني في برلين ، قبيل اعدام الشاعر على أيدي الفاشست . وقد ظهرت أولى مجموعات الشاعر في العام ١٩٢٥ في قازان ، تحت عنوان « اننا ماضون » . وكانت مكرسة للحركة الثورية والحرب الوطنية .

وفي العام ١٩٢٥ ذاته أنهى الشاعر دراسته في الكلية العمالية ، عائدا الى منطقة « أورنبورغ » حيث تدرج في أعمال ومهام الكومسومول (منظمة الشبيبة) ليصبح أحد ممثلي تتاريا - بشكيريا في مؤتمر الكومسومول في موسكو .

وفي موسكو التحق الشاعر بكلية الاداب بجامعة موسكو لينهيها في العام ١٩٣١ . ولكنه لم يهجر العمل في الكومسومول . وهكذا تيسر له أن يمزج بين التجربة الادبية الابداعية ممثلة في عمله الادبي ، والتجربة الدراسية والثقافية في الجامعة ، والتجربة الثورية في عمله الدائب في تنظيمات الشبيبة . وأهم من ذلك انه وسع أفقه على كل صعيد ، بالاختلاط بأدباء العاصمة وأوساطها الادبية وعمالها وطلابها ، وبالتفاعل مع أوجه الحياة الجديدة فيها تفاعلا خالقا هادفا . وقد ظهرت مجموعته الشعرية الثانية في العام ١٩٢٩ حاملة مثل هذا العنوان « الى الرفيق ! » .

وبعد أن شرع يتخلص من رومانسيته الاولى صارت أشعاره الجديدة التي أخذت تقترب من النضج الفني تستلهم آفاقا واسعة في الحياة ، وتعد بوعود كبيرة . فتعمقت عنده وجهة النظر على كل صعيد ، ولم يعد ذلك الفتى الغر . الحب عنده ليس قضية خاصة أو معزولة عن القضية العامة . والابطال عنده يتطورون من السذاجة الثورية نحو الوعي الثوري المكتمل ، وهو ما تعرض له الشاعر ذاته وعاناه في نفسه . على ان أهم ما كرس الشاعر له نفسه في هذه الفترة هو البطولة - بطولة الشعب عاملا ، ومدافعا عن وطنه ، وثائرا ، ومنتصرا ، وبطولة الفرد ممتزجا بالشعب ، ناذرا نفسه له ، ومنتصرا في انتصاره حتى ولو ضحى بنفسه وروحه . هذا ما شهدت له به أشعاره التي منها « الربيع » و « الكومسومولي المريض » و «الفتوة» حيث يقول في هذه الاخيرة (في عام ١٩٣٣) :

« لن تنطفىء نار القلب تلك !
سأظل أعيش ، وأحترق ، وأناضل دوما .
هذا هو ما يعنيه تذكري
لك أيتها البعيدة عني ! »

ان العهد الذي قطعه على نفسه عهد واحد ، عهد أبدي . والفتوة عنده واحدة مهما توالت السنون والغضون والشجون . انها أبدية ، انها ناره الازلية - نار الاحتراق من أجل الشعب .

وفي العام ١٩٣٤ طلعت له مجموعتان شعريتان كبيرتان (طبعا باللغة التترية) هما : « الملايين حاملة الاوسمة » و « أشعار وقصائد » . وبعد عام ظهرت له مجموعته الاولى باللغة الروسية . ومنذ منتصف الثلاثينات حتى وفاة الشاعر استشهادا كانت فترة النضج الشعري . ان رؤيته الفنية اكتملت هنا باكتمال رؤيته الفكرية ، وبمعنى آخر اغتنت بها ونضجت . ولم يكن مصادفة ، من ناحية أخرى ، ان تعاصر فترة تفتح ونضج موهبة جليل الفنية فترة تفتح ونضج الادب التتري السوفياتي . فقد لعب الشاعر دورا كبيرا في الحياة الادبية والثقافية في العهد السوفياتي من أدب تتاريا. فقد كان يشارك بنفسه في ماجريات الحياة الفنية في العاصمة التترية (قازان) . ونشير بذلك الى مساهماته الفنية في افتتاح مسرح الاوبرا والباليه التتري في قازان في كانون الاول ١٩٣٥ ، وقبل ذلك في تنظيم ستوديو الاوبرا التتري في المعهد الموسيقي العالي في موسكو في ١٩٣٤ . ومن هنا انطلق الشاعر يعمل في اعداد سلسلة من القصائد الدراماتيكية ، والليبرتات للاوبرا (ومنها «الصيادة» و «الربيع الاول» وسواهما) . وكان عليه ، بالتالي ، أن يتوجه الى الفولكلور التتري ، ليغني به فنه وعمله الجديد . وترك كل هذا ظلالا أسبغت على الشاعر عافية شعرية وفنية ، وعمقت من ثروته النظرية والتطبيقية .

وجدير بالذكر انه في هذه الفترة أيضا (فترة النضج) درس الشاعر بامعان أعمال معاصريه وسابقيه من الشعراء الروس الثوريين والديمقراطيين والاشتراكيين والانسانيين في العهد السوفياتي وما قبله ، أمثال : بوشكين ، ونكراسوف ، وماياكوفسكي ، ويسينين ، وباكريتسكي .

كما ان الخيط الملحمي قد تبدى واضحا في هذه الفترة ، فيما كان في السابق مختفيا وراء الغنائية الذاتية . ونشير هنا الى قصائده « جيهان » (٣٦ - ١٩٣٨) و « المدير والشمس » (١٩٣٥) وسواهما ، مما أرخ لانتصار الجديد والاشتراكي في القرية التترية . وفي عام ١٩٣٨ ظهرت له قصيدته « ساعي البريد » التي وضعت وصنعت انعطافا لا في ابداع الشاعر وحده بل في الشعر التتري السوفياتي أيضا . هنا تمتزج وتتفاعل معاني وقضايا الحب والعمل والسعادة والجمال ولكن بشكل عفوي حي وبطريقة مقنعة . فهذه القصيدة تتغلغل في العالم الروحي لابطالها ، وتقدم النماذج من الحياة ذاتها ، ولكن بشكل فني ، وباستناد على الثروة الفولكلورية التترية والشرقية .

وقد أرخت نهاية الثلاثينات لنشاط جم للشاعر ، شغل منه بكتابة الاشعار والقصائد ، والمراجعات النقدية ، والتحقيقات والاعداد لرواية حول الكومسومول ، ناهيك عن التهيئة لاعمال دراماتيكية ومسرحية .

واذا كانت قصيدته « ساعي البريد » قد صورت سعادة وجمال الحياة الاشتراكية ، فان قصيدتيه الدراماتيكيتين « الفتاة ذات الشعر الذهبي » (١٩٣٥ - ١٩٤١) و « الدار » (١٩٤٠) ، قد عالجتا

من جديد وبطريقة جديدة مواضيع الشاعر المحببة عنده ، وهي البطولة ، ونضال الشعب من أجل الحرية والسعادة . لكنه هنا يستثمر الفولكلور استثمارا رائعا ، ويمزج بين الجديد والقديم ، والماضي والحاضر ، متوجها الى أعماق الشعب التتري ، وناهلا من معينها الحي الموار .

— ٢ —

ولكن هل انتهت قصة الشاعر عند هذا الحد مع ٢٢ عاما من الابداع الادبي المتواصل ؟ وماذا حملت اليه الحرب الوطنية الكبرى (الحرب العالمية الثانية) ؟ وما علاقة هذا بشعره ومصيره وعطاياه الشعرية لاجيالنا المعاصرة ؟

لقد كان منطقيا وواقعيا ، وحتمية لا مناص منها ، أن يلتحق الشاعر الشاب ، والرجل الثائر الناضج — بكل ما في هذه الكلمات من معان وظلال — بالجيش السوفياتي ملبيا نداء الجبهة . فقد هيأ نفسه لذلك بأشعاره وبكامل تصرفاته وسلوكه النضالي طيلة ٢٥ عاما . ووضع شعره في خدمة الجبهة منذ الشرارة الاولى للحرب الوطنية في أرض الوطن . ولذلك رفض عرض القائد بتسريحه (بعد أن علم ان المجند هو من كبار شعراء تتاريا) بل والسكرتير المسؤول لادارة اتحاد كتاب تتاريا ، منذ عام ١٩٣٩ ، حين صدرت مجموعته الخامسة) . لقد قال بالحرف الواحد : « ان مكاني هنا — بين المحاربين — ان مهمتي هي ان اكون في الجبهة وأضرب الفاشست » .

وفي آب ١٩٤١ وجه جليل الى دورات المرشدين السياسيين في منطقة « كورسك » أولا ، ثم في « تتاريا » في مدينة «منيزيلينسك» . وقد قضى الشاعر ستة أشهر محاربا العدو بريشته وفكره ، ومن ثم بيده ، حين استلم أمرا بالتوجه الى جبهة « فولخوفسك » . وهنا ابتدأت حياته العسكرية ، وابتدأت معها صفحة جديدة من أدبه النضالي ، مما يندرج تحت باب « أشعار من الجبهة » ، أو « رسائل من الخندق » . وكانت الرسائل النثرية — بالمعنى الحرفي — الى الزوجة ، تتفق وتتكامل وتترافد في المعنى مع الرسائل الشعرية من الخندق . فقد كتب الشاعر مرة الى زوجته (آمنة) يقول :

« ... اننا نحب الحياة جدا ، نريد أن نعيش ، ولذلك فالموت لنا خصم . ولكن حين يكون موتك ضروريا (في الحرب من أجل الوطن) ، ويكون هذا الموت الذي تختاره بنفسك تعويضا لارض الاباء عن ٣٠ — ٤٠ سنة من الحياة قبل الشيخوخة ، فآنذاك ما من داع للاسى حول احتضار مبكر . ان كان الانطلاق هكذا — وهكذا أفكر أنا — فالموت ليس رهيبا أبدا . لكننا لا نفكر كذلك فقط ، وانما كذلك نحس ، وكذلك نشعر » .

وكان التعبير الشعري لمثل هذه الرسالة ينطلق في مثل الابيات التالية :

« سيكون حلمي هادئا وسعيدا ،
حالما اهدي حياتي للوطن ،
لكن قلبي المخلد بعد ذاك سيظل
ينبض في قلبك ، كما كان ينبض في الحياة »

ومثل هذا ما كتبه الى ابنته « جولبان » (نجمة الصباح) ، في قطعته « الى ابنتي جولبان » :

« ان سقطت فوجهي الى أمام
كي أستطيع ان أحميك .. »

وقد صحت توقعات الشاعر ، لكأنه يعلم بما سيتعرض له . ففي أحد أيام حزيران ١٩٤٢ ، سقط الشاعر جريحا في صدره ، وفاقدا القدرة على المقاومة ، في أسر الفاشست . سقط ووجهه الى امام ، كما كتب الى ابنته « نجمة الصباح » . ومذ آنذاك ابتدأ عذابه الروحي والبدني الكبير ، والذي رافقه حتى مصرعه برصاص الجلادين .

لقد تنقل الشاعر الاسير بين عدة معسكرات اعتقال فاشية . وفيها أضاف الشاعر صفحة نضالية جديدة . فقد غامر — واعيا كل المخاطر التي سيتعرض لها هو ورفاقه ان اكتشفوا — بتنظيم النضال السري ضد الفاشست ، وتنظيم منظمات سرية هدفها اعداد الاسرى للفرار والالتحاق بالانصار . وفي سبيل ذلك ارتضى ، في الظاهر ، أن يلتحق بأولئك القوميين المغرر بهم ، من التتر ، من أجل أن يكسب الحرية في الاتصال بالاسرى ، والقدرة على الحركة والتعبئة . كان هم الالمان أن ينشئوا فصائل من غير الروس من الاسرى ، ليقذفوا بها في وجه القوات السوفياتية المحاربة . وفي معسكر الاعتقال الذي ضم جليلا أنشئت هذه الفصائل أيضا ، فالتحق بها المناضلون السريون الذين كانوا يتسلمون التوجيه من جليل ورفاقه أمثال كاتب أدب الاطفال التتري (عبد الله عفيش) — الذي سيحتفل يوبيله الستيني في أيلول هذا العام (١٩٦٨) — وسيمانوف وبولاتوف وغيرهم . كان ذلك في مطلع العام ١٩٤٣ . ولكن الفصائل الاولى من الاسرى ثارت بوجه جلاديها ، حينما وصلت « غومل » في بيلوروسيا ، مجهزة على آمريها الفاشست ، ملتحقة بالانصار .

وكانت حملات الفرار تتعدد محرزة نجاحا . وفي ليلة العاشر من آب ١٩٤٣ ، وحينما كان جليل ورفاقه يهيئون لفرار كبير ، موزعين قبل ذلك المناشير ، داهمهم الفستابو ، بعد أن وشى بهم خائن مارق . وقد نقل المعتقلون على الفور الى « وارسو » ، المحتلة آنذاك ، ومن ثم الى السجن البرليني (مآبيت) الذي كان معدا لكبار السياسيين الخطرين على النظام الهتلري . وهناك كانت سلسلة من أعمال الاستنطاق والتعذيب انتهت بالحكم عليهم بالموت ، وكان ذلك في آذار عام ١٩٤٤ في (درزدن) . أما تنفيذ الحكم بالاعدام فقد تم (هذا ما يمكن فهمه من الوثائق المعنية) في ٢٥ آب ١٩٤٤ في ساحة السجن في « بليتسيتز » .

ان أعصاب الشاعر الانسانية البطلة ، الاقوى من الفولاذ المسقي، لم تستفزها ولم تحملها على الركوع لا استفزازات الفستابو في معسكرات الاعتقال ، ولا تعذيبات الـ « اس. اس » البربرية في السجن . ان كلمته التي أعطاها لشعبه يافعا في ١٩١٩ ، لم يخنها ، وانما أضاف اليها شيئا جديدا ، وكان ذلك هو التنفيذ . كان عهده واحدا في منظمات الفتيان والطلائع والشبيبة وجبهة العمل الادبي والبناء الاشتراكي ، والجبهة والخندق ، والاسر والسجن ، وأمام الموت . كانت كلمته باختصار ، ولكن بمنتهى العظمة أيضا : « كلا — للاعداء والطغيان والنذالة ! ونعم — للوطن والحياة والحرية والحب ولكل ما هو حي وجميل ! » .

— ٣ —

لقد قال الشاعر كلمته منذ زمن بعيد ، وضرب بحياته المثل في صيانة شرف تلك الكلمة . فاما مع الحياة ، واما مع أعدائها ، واما مع الحب واما مع الكراهية ، واما مع الجمال أو مع القبح ، وباختصار : اما مع الانسان والجمال ، أو ضد الانسان ومع القبح . وقد اختار الشاعر منذ سنه الثالثة عشرة (١٩١٩) طريق الحياة والحب والجمال ، وجبهة الانسان والنضال والجمال . وكان ثمن ذلك حياته . نعم انه لثمن غال ، ولكن شرف الوطن ، والانسان ، والجمال ، والحب ، أغلى . ان الشاعر مات جسدا ولكنه خلد ما دام الانسان وحضارة الانسان وعقل الانسان وتقدمه .. في الوجود . لقد أنحل الشاعر الى عناصر الطبيعة الاولية الاربعة : النور والنار والماء والهواء . ترسخ في قلب الانسان وعقله ، كأي شهيد ، وكأي شاعر شهيد . وكان أحد رسائله الى كل هذا : استشهاده . وثاني رسله : (دفتر مآبيت) — اي المجموعة الشعرية في سجن مآبيت — وهي حتى الآن تعد خاتمة مجاميع الشاعر .

فما هي هذه المجموعة (دفتر مآبيت) ؟ وباي شيء تتميز ؟ ولماذا منحت جائزة لينين في الادب لعام ١٩٥٧ ، ومنح صاحبها لقب « بطل الاتحاد السوفياتي » ؟ ولماذا ترجمها لويس اراغون

في فرنسا ، وغيره في ألمانيا ، وغيرهما الى لغات أخرى ؟

يعد كير من الباحثين التتر ، والروس ، والسوفيات عموما ، ممن عرفوا الشاعر عن كثب ، مثل « غازي كشاف » و « عمر بشيروف » ، وممن لم يعرفوه عن قرب ، يعدون هذه المجموعة أفضل مجاميع الشاعر ، وذروة نضجه الشعري . ذلك انها عكست أفضل ما في المجاميع السابقة من انجازات ، وأضافت انجازات جديدة ، تأتت بفضل الظرف الجديد الذي تعرض له الشاعر مفرط الحساسية ، والملتهب ، والشجاع أبدا . فالمحنة تكشف عن أنماط الرجال ، وبالنار تمتحن المعادن ، وكذا معادن الرجال . وقد خرج جليل من المحنة رجلا ظافرا برأس مرفوع وعيني نسر « ووجه الى أمام » !

تتميز المجموعة (دفتر مآبيت) بالميزات التالية (بعضها متوفر في مجاميع سابقة ، وبعضها الآخر جديد تماما) :

١ - الثقة بالنصر والتفاؤل : مثل هذا رأيناه في مجاميع سابقة ، ولكنه هنا يكتسب ظلا ولونا جديدين . فهو هنا في « الكيس الحجري » - كما سماه - وهي الزنزانة التي حشر فيها وظل فيها حتى تنفيذ الاعدام به) ، وهو هنا يتعرض للتعذيب والحرمان التام من الحرية ، والى الغربة الحقيقية عن الوطن والزوجة والبنت والاصدقاء ، وأفظع من ذلك الى العزل التام عن بقية الناس ، وانقطاع الاخبار ، وباختصار : الى أفظع تعذيب بدني وروحي . ومع ذلك كله ، وبرغمه ، ينطلق صوته هادرا بكل قواه :

« ليس رهيبا ان تعرف ان الموت يمشي اليك
ما دمت تعرف انك تموت من أجل شعبك .
ولكن الموت من الجوع .. كلا ، كلا ، أيها الاصدقاء
لا أريد لنفسي مثل هذا الموت المخزي .

***

أريد الحياة من أجل
أن أمنح الوطن آخر نبضات القلب ،
كي أستطيع ان أقول ، وأنا أموت ،
انني أموت من أجل الوطن - الام »

(من مقطوعته « أفكار لا تتغير »)

وفي مقطوعته « في يوم الحكم » يخاطب الارض التي تحزن لمصير أبنائها ، بمثل هذه الكلمات :

« لا تحزني أيتها الارض - فنحن
لا ترتجف ، ما دمت تحملينا ،
ان اسم البلد ، الذي به نحيا ،
سيظل معبودنا حتى في ساعة الموت » .

ويتنبأ بكل جرأة وصحة وثبات ، فهو صوت العقل والارض والشعب والحياة معا ، بالمصير الذي ينتظر كل الجلادين ، وكل الطغاة من اي صنف :

« سوف يأتي ذلك اليوم ، حين يحاكم الشعب الجميع
وفي قرار القاضي المدوي
ستكون الاغنية المعفرة بالدم
جزائي الابدي » .

وفي مقطوعته « طريق الفارس » ، يضع على لسان الفارس ، مخاطبا حصانه ، مثل هذه الكلمات :

« آه ، يا وثابي ، ليس عبثا في الناي المضبضب
أن تسمع الحبيبة أغنية اللوعة التي تقول :
الى العتبة الحبيبة ، ستقودنا
في غبش الفجر منتصرين » .

وهو في أكثر من مقطوعة ، وأكثر من بيت ، يذكر دوما أن النصر لقضيته - قضية الوطن - و « أن معجزة » رفاقه ومعجزته سيظل يذكرهما التاريخ . وبالطبع فان مثل هذه الثقة العارمة بالنصر ليست غريبة عن روح جليل ، فهو من أولئك الذين يصح عليهم ما قاله هو عنهم في مقطوعته « الفولاذ » : « من خلال النار والماء انطلقنا وراء الحقيقة » .

٢ - تذويب « الانا » في « النحن » ، في الجميع : ان كل شاعر يفخر « بأناه » ويعتز بها جاعلا اياها محور غنائه وبطل غنائيته . ولكن بعض الشعراء ، وهم الواقعيون الانسانيون ، ينطلقون من غنائية الذات الى غنائية المجتمع ، الى غنائية الحياة والشعب ، فهم يلحمون « الانا » « بالنحن » « بهم » ، ان صح التعبير ، وهؤلاء ليسوا كثيرين ، واليهم ينتمي الشاعر الواقعي الاشتراكي موسى جليل . والحق انه بدأ هذا الطريق منذ أمد بعيد ، ولكنه هنا يحل نفسه ، بشكل بطولي واستثنائي ، في نفس الشعب ، في صوت الحياة وصوت الشعب . فان انتصار البطل يعني انتصار الشعب وانتصار الحياة . وموت البطل هو في سبيل حياة الشعب ، فهو ، بالتالي ، ليس موتا ، وانما هو حياة أخرى . وهكذا يخاطب الشاعر وطنه وشعبه بشكل مباشر (كما في مقطوعته : اعفني يا وطني !) ، أو يخاطب الجلادين باسم شعبه ، او يخاطب الموت باسم الحياة واسم الانسان . ان هذه الغنائية فريدة ، وهي لم تتأت لكل الشعراء . انها تأتت للشعراء المناضلين الموهوبين ، الذين تتوفر عندهم بشكل حي وحدة رائعة للشكل والمضمون ، كما هو الامر في شعر ناظم حكمت حين يقول مخاطبا زوجته :

« أنا أعيش بين الناس ، وأنا أحب الناس
أنا أحب العمل
وأحب الفكر
وأحب نضالي
وأنت انسان في نضالي
فانا أحبك »

وكما هو الامر عند موسى جليل ، حين يقول باسم كل المناضلين ، وكل محبي الحياة والسعادة والعدالة والجمال ، صارخا في وجه الموت ، في مقطوعته « الى الموت » :

« لو وقفت متفرجا على العاصفة والرعد
لكنت قد عشت بسلام ، دونما أحزان .
لكنني قد خطوت في قلب الرعود ، وفي العواصف نشأت
ومن خلالها لاجل الحياة والسعادة ضدك (أيها الموت)
ناضلت » .

أو حين يخاطب صديقه الذي لاقى الاعدام معه ، عبد الله عليش مفلسفا أغنية الاغاني في الوجود البشري ، وداعيا الى التضحية بـ « الانا » في سبيل حياة الشعب وظفره :

« يا صديقي ، ان حياتنا محض شرارة
لكل حياة الوطن ونصر بلادنا .
هب اننا سننطفىء ، فمن موتنا هذا
سيتألق نور وطننا أكثر فاكثر » .

أو حين يتوجه الى زوجته التي يحب بكل ما فيه من انسانية وحب وقوة وشاعرية ، مدافعا عن شرف استشهاده المقبل ، ومقدما اليها التبرير والعزاء :

« لقد حملت رشيشتي وانطلقت للقتال
في المعركة من أجلك ومن أجل أمنا - الوطن
أخيانتك ؟ أم خيانة وطني ؟
ماذا يتبقى لي بعد هذا في حياتي ؟ »

ان حبه ملتحم بحب الوطن ، وحب الحياة الحرة الكريمة ، وحب الشعب ، وهو يعرف هذا :

« الارض تدفن الجسد البارد - ولن تدفن الاغنية الحارة !
فمت منتصرا فمن يدعوك ميتا - ان كنت مناضلا حقا ؟ »

- التتمة على الصفحة ٥٣ -

شاعر من الشرق السوفياتي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٩ ـ

٣ ـ الاتحاد بالطبيعة والحلول فيها . ومثل حلولية « اناه » في شعبه ، ثمة حلولية اخرى مكملة لها ، هي حلولية الشاعر في الوطن ، الارض ، والوطن ـ الطبيعة . لقد تفجرت احاسيس الشاعر في السجن ، في انتظار الاعدام ، وفي الاسر ، بعيدا عن الوطن ، فاذا كل صخرة ، وكل نهر ، وكل زهرة ، وكل غابة وحتى شجرة الحور الشائخة .. كل هذا يمثل في قلب الشاعر رمزا للوطن ورمزا للحياة. والشاعر بغنائيته الانسانية استطاع أن يشخص جميع ما في الطبيعة من شجر وزهر ، وأن يبعث الحياة في الجماد ، فاذا الكل يحيا ، كالانسان ، متعاطفا معه ، مشاركا له في بأسائه وسرائه ، وآلامه وآماله ، في اغنية واحدة مشتركة ، اغنية كبيرة تلف الارض والاحياء جميعا ، هي الحفاظ على الحياة ، في وجه الموت . وهي هنا تعني المحافظة على الحياة بشكل عام ، وحياة البشر ، امام اعداء الحياة ، وأعداء الانسان ، وأعداء الطبيعة ، وهم الفاشست . انها في رأيي لون من الرومانسية الصوفية الثورية المستقطرة أحر وأزكى ما في الواقعية .

ففي مقطوعته « البربرية » يصف كيف أعدم الجلادون النساء والاطفال ، ولكنه لا يكتفي بمحض التصوير الانساني الواقعي ، وانما يقوي اللوحة التي يعرض بان يشخص الجماد ويؤنسن كل شيء ، دافعا به الى السخط على البرابرة :

« كلا ! لن أنسى هذا اليوم !\
لقد رأيت كيف بكت الانهار كالاطفال\
وبضراوة بكت الام ـ الارض\
لقد رأيت بعيني\
كيف ان الشمس حزينة ، مغسولة بالدموع\
أشرقت على الحقل من خلل الغيم\
وقبلت الاطفال قبلتها الاخيرة ..\
قبلتها الاخيرة ..\
وقرقعت الغابة الحزينة بشدة\
كما لو انها جنت . وبحنق\
زارت أوراقها وتكاثف الوحل ..\
لقد سمعت : كيف سقط البلوط المسكين فجأة\
زافرا زفرة ثقيلة » .

وينطلق بعد ذلك الى تفسير غضب الارض والطبيعة هذا فيجده في كونها لم تخبر « ولو مرة واحدة مثل هذا الخزي وهذه البربرية .. » وحين ينهض البطل عنده (في مقطوعة عنوانها « بلا ساقين ») واقفا ، مع انه مقطوع الساقين بفعل لغم ، نسمعه يقول :

« من أجل دمي سخطت الارض .\
وانهد شجر الحور محني الظهر ينحب\
ان الارض ـ الام لم تدعني اقع\
بل قدمت لي يدها وأنهضتني » .

ومثل هذا نجده في مقطوعات كثيرة ، بل يكاد يشمل في عموم الديوان ، ففي مقطوعته « في عون الربيع » يهيب بالاصدقاء ان يساعدوا الارض في كسح الثلج والشتاء ـ رامزا بذلك الى الاحتلال الدنس ـ لتستقبل الربيع (يقصد به الحرية) « ولترقص الاغصان » ، و « لتهنأ الارض أزهارها » . ان الارض هي الام ، وهي الوطن ، وهي صوت الانسان ايضا . يقول الشاعر في مقطوعته « حارس السجن » وهو جلاد من فرقة (الاس. اس.) :

« لو تعلم الارض كم من الناس\
ماتوا في قبضة الجلاد القذرة\
لما رفعته فوق ظهرها ولا لحظة\
ولحرمته شعاع الشمس » .

وفي مقطوعته « الازهار » يصف الشاعر الاطفال بانهم « ابناء أمنا الارض » وبان الازهار هي هدية أمنا الارض اليهم . ويقول فيها حالما بالانتصار والعودة الى الوطن :

« وفي قلب الارض الجريح\
أرى الانتصارات مزهرة ،\
وقد سمعنا في الازهار\
نبض الارض الحبيبة » .

وهو يخاطب المواطن ، من سجنه النائي ، ان ينهض من اجل الوطن « لكي تبقى قضيتك وعملك ـ معمرة كهذا الحور منذ آلاف السنين » ، وهو يشير هنا الى شجرة حور معمرة تهب الفيء والود والحنان للناس . و « الطفل في مهده ـ كزهرة في برعمها » في مقطوعته « حلم طفل » . وهو يقدم هدية الى جاره وصديقه النصير البلجيكي « أندريه » زهورا من بلاده . وتنبت زهور اربع مكان جثث اربعة شجعان ، فيما ينبت الشوك مكان جثة الخامس الجبان (في مقطوعته ـ « الزهور الاربع ») . ويهيب بالالمان ان يثوروا ضد الطغيان (نوروا بالشمس المانيا ! افتحوا دربا للشمس في المانيا !) . في مقطوعته الرائعة « في بلد الالمان » وأغنية « النهر الجبلي » تجسد حبه للحرية وتغنيها كانسان حقيقي .

٤ ـ البطولة : ان البطولة والتغني بها ، وتمجيدها ، تلف المجموعة كلها ، ولا تكاد قطعة تخلو منها . وهي عند الشاعر موضوع قديم « قدم ثقته بالنصر . ان الشاعر يرى فيها أحد مظاهر الجمال الانساني ، بل هي عنده ، في هذا الظرف ، الملمح الاشد تعبيرا للجمال الانساني . فكما يهيم الشاعر بالعمل ، والبناء ، والسلم ، والحب ، والازهار ، كذلك يهيم بالبطولة باعتبارها معبرا وقنطرة نحو كل ما يحب . فبالبطولة تصان الحياة ، ويصان الشرف ، ويمجد الانسان ، ويحافظ على نقاوة الحب ، وأحلام العذارى ، وبراءة الاطفال . بل هي جمال كل جمال ، فمن دونها كيف يمكن كسح الذل والضيم والقبح ، والقضاء على أعداء الجمال :

« ان مرت الحياة دونما اثر\
وان تصرمت في الذل والضيم فاي شرف ؟\
انه لفي الحرية فقط جمال الحياة !\
وفي القلب الشجاع فقط معنى الخلود !

***

فان سال دمك من أجل الوطن ـ أيها الفارس\
فانك عند الشعب لا تموت .\
ان دم الخائن يتمرغ في الاقذار\
اما دم الشجاع فيتألق في القلوب .

***

ان البطل ، وان قضى ، لا يموت\
فالرجولة تخلد في القرون .\
فمجد اسمك بالنضال\
كي لا تلوكه الشفاه » !

ان الشاعر يستثير حتى قوى الطبيعة ومظاهرها كي تشاركه في اغنية تمجيد البطولة : الثورة على الضيم ونيل الحرية . ففي مقطوعته « النهر الجبلي » نسمع هذه الكلمات موضوعة على لسان النهر :

« للشمس أغني أغنيتي\
وعلى العبودية أضحك .\
من هنا عاصفتي\
وزئير تدفقي الى أمام » .

وفي مقطوعته المهداة « الى صديق » (وهو عبد الله عليش) ـ الذي مر بنا ذكره ـ يحبب اليه الشاعر الموت في سبيل الحياة ، والاستشهاد البطولي في سبيل قضية الوطن والشعب والانسان ، بكل قوة الكلمة الصادقة :

« ليس الوقت بين الولادة والموت
هو وحده الذي يحد الحياة .
فلربما ان دمنا ، هذا الذي يراق هنا ،
هو ينبوع خلودنا الرائع » .

أو حين يقول :

« وان كانوا سيقطعون جذع شبابنا
ففي الشعب جذوره لن تختفي .
سيقول الفتيان : ـ ها هو السمو والشموخ !
فالموت يلتقيه كل انسان ! »

وهو يصرخ في وجه الموت ذاته ، انه لا يخافه ، فان كان سيموت « فمن أجل الحقيقة المقدسة والعدالة » . وفي مقطوعته « بلا ساقين » نسمع أغنية البطل العائد الظافر والفاقد ساقيه :

« لقد رجعت ! فاستقبليني يا حبي !
لا تحزني ـ اني بلا ساقين ،
فمقابل هذا لدي كمال الروح والشرف
أوليس الانسان كله في هذا ؟ »

٥ ـ الحب : حب الشاعر لزوجته « آمنة » وابنته « نجمة الصباح » هو حب عظيم ما نال منه الاسر ، ولا النأي ، ولا حكم الاعدام ، ولا الموت . فالشاعر يرى ابنته في الاحلام . ويوجه أشعارا الى زوجته يعلن فيها انه سيظل مقيما على الحب ، على العهد حتى وان حدث ان تحولت هي عن هذا الحب . واللوعة التي احتضنته في السجن هي ليست لوعة الفراق عن الوطن فحسب ، بل لوعة الفراق عن حبيبته أيضا . ومع ذلك فان الحب عنده يتوحد مع عاطفته الوطنية ، وحسه الانساني ، وذوبانه في الطبيعة ، فالحب عنده ، والوفاء ، هو آية من آيات البطولة ، كما انه من جهة أخرى ـ أي الحب ـ يدفع المحب الى التضحية الاختيارية من أجل شرف الحبيبة وشرف وطنها . يخاطب الشاعر الحلم الذي يتسلل اليه في السجن ، في « الكيس الحجري » ، بأنه العزاء ، وتعويض عن أمنية تتكرر أبدا وهي اللقاء بالحبيبة ، والعودة الى الربوع الحبيبة :

« انني أعرف : مع الحلم تمضي الحياة .
ومقابل هذا بالنصر والسعادة
تشرق هي في الفجر في بلادي .
وليس ثمة أحد يستطيع أن يحبس الفجر ! »

وهو بالطبع لم يرد الاكتفاء بالاحلام ، انما ذلك فرض عليه فرضا في « كيسه الحجري » في انتظار المقصلة . انه يكتب مقطوعة ـ أغنية الى حبيبته ، يطالبها بشيء واحد : أن تظل وفية له . وهو في لوعة الفراق ، ولوعة طلب الوفاء ، والتحرق للقاء ، يذكر بالشعراء الصوفيين في الشرق وذوبانهم في أحبابهم ، وتولههم بحيث تحل أرواحهم في محبيهم وارواح محبيهم فيهم : انه هنا يذكر بجلال الدين الرومي ، والحلاج ، والشيرازي ، وحافظ ، وسعدي ، وعمر الخيام ، وبشعراء آخرين من الشعراء العذريين كمجنون ليلى وجميل بثينة مثلا . انه يخاطب حبيبته مذكرا انه « ممكن أن تمر سنون بلا رسالة ، وبلا أي خبر عني » وسيقولون لك « انه غير موجود » وربما « سيولي حبك » و « لكن عندي قد لا يكون ثمة شيء أقوى منه » . ان الموت يصيبه فقط حين تحرمه هي من حبها ، حين تنساه تماما ، ولكنه لا يصدق انها ستنساه . وهو ان سقط في المعركة فانه سقط شريفا ، لم يدنس قسمه للوطن وللحبيبة بشيء . فالحب والوفاء للحبيب هو معادل للثبات والنصر « ذلك انني ان جئتك غير ظافر ـ لكنت لم تقولي لي : شكرا » ! وهو بحاجة الى شكر الحبيبة ، والى حبها ، فذلك بعض ما يجعله يؤدي واجبه :

« أن حبك ، عربون
انقاذي من ماء ونار »

ان تحرق الشاعر في حبه ، وهواجسه التي تعذبه ، وعاطفة حبه الكبيرة .. كل هذا يحمل شحنة انسانية دافقة . فبالحب يمكن العلاج ، وبالحب يمكن الشفاء . يقول في مقطوعته « الدواء » :

« أيها الطبيب علام العجب ؟
ان الذي يعين صحتنا
أكثر من أيما دواء
هو الذي يدعونه «بالحب» » .

انه هنا مثل اراغون في سائر أغاني حبه ، وبالخصوص في « مجنون ايلزا » . ان شعاع الحب ، كالبطولة ، وحب الحياة والوطن ، يكاد يسربل كل مقطوعات « دفتر مآبيت » .

٦ ـ الانسانية وتمجيد الانسان : عند الشعراء الرومانسيين وشعراء آخرين يكون التغني بالانسان والتكريس له وتمجيده مجرد لحظة ، ومحض نزعة ، ولذلك يقال عن هذا وذاك من الشعراء انه يمتاز بنزعة انسانية . أما عند الشعراء الواقعيين الانسانيين فتمجيد الانسان والتكريس له هو محور المحاور . فالتغني بالحب ، والجمال ، والبطولة ، والثورة ، وحب الحياة ، والوطن .. كل هذا هو مجموع انهار تترافد وتتفاعل فيما بينها لتصب في محيط واحد ، محيط عظيم شامل ، هو الانسان والحياة الانسانية . فلقد ثار شاعرنا في وجه الجلاد الفاشي لانه يشرب من « دم ودموع » الناس و « يخبط قلوب التعساء » ولانه يريد أن يذل الانسانية في الانسان ، يريد الركوع لنظامه الفاشي ، فيما أن الانسان الحر لا يركع الا لوطنه ، ولسعادة شعبه ، وللحرية .

ان مفهوم الشاعر في الانسان ـ المثال ، هو من السعة والشمول بحيث يلف كل أوجه الجمال الانساني . وهو ينطلق الى ذلك من روحه الشرقية التي تقدس الشرف والوفاء والثبات والحفاظ على العهد ، سواء كان لحبيبة او لوطن او لرفاق ـ وهو عهد واحد عنده . يقول المناضل ـ مقطوع الساقين في الحرب ، والعائد ظافرا الى وطنه وحبيبته :

« لا تحزني ـ اني بلا ساقين . فمقابل هذا لدي كمال الروح والشرف . أوليس الانسان كله في هذا ؟ » .

ان جمال النفس البشرية ، الجمال الداخلي والروحي عنده ، يفوق أي جمال آخر . وهذا الجمال ممكن أن ينعكس في الوفاء للحبيب ، والوفاء للوطن ـ الام ، والوفاء للحياة ، كما هو ممكن ان ينعكس في الاعمال الضخمة والبناء السلمي ، وهكذا يسلم الشاعر من نظرة احاديه الجانب ومن ضيق الافق . فهو لا يماثل ، وانما

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار

يكمل أوجه الجمال الانساني الواحد بالاخر . يقول في قصيدته « نصيحة واحدة » انه قد قابل الكثير من الناس ضخام الاجسام ، صغار العقول والنفوس ، فلم يجد فيهم المثال الانساني . انه هنا يذكر بالشاعر العربي القديم الكبير أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

« ودهر ناسه ناس صغار   وان كانت لهم جثث ضخام »

والشاعر يقول بعد ذلك ، مكملا مقولته : « ولكن كن فيلا – فلن اعترف بك – ما دامت اعمالك في حجم العصفور – فليكن في كل ما تنجزه – اثر الصفاء الروحي ! – فان القوة ليست في مظهرك – وانما في انسانيتك فقط » .

وقد رأى الشاعر الجمال الانساني في أحصان فتاة عاشقة ، وفي الوفاء للحب ، وفي حلم سعيد لطفل آمن ، وفي لعب الاطفال في أرض فواحة بالازهار ، وفي امرأة ترضع طفلا قتلت أمه قنابل الاعداء ، وفي ابتسامات الاخوات الممرضات ينقلن الجرحى ، وفي انتقام امرأة بسيطة من مقدم ألماني قتل زوجها وجاء يريد أن يغتصبها . ولم ينف عن نفسه لحظات الضعف ، والهواجس المعذبة في كونه يموت وحيدا ، ولربما مضت الحبيبة الى سواه . انه يحزن حزنا انسانيا حقيقيا ، حين يجد نفسه محروما من كل شيء ، ومع انه لا يأبه بالموت ، لكنه لا يستطيع رؤية طفلته ، فأية لوعة ، وأية قسوة ، وأي عذاب هو هذا ؟ وهو هنا يلتقي بكل شعراء الشرق في ابداء اللوعة والتوجع لقسوة الصروف والهجران والنوى . فلنسمع شيئا من مقطوعته « الاساءة الاخيرة » :

« ايه أيتها الحياة ، تصورت مرة انك « ليلى »
وأحببتك بكل صفاء روحي كالمجنون
لكنك لم تتقبلي قلبي
وقدمته طعما للذئاب » .

« عن الوطن الام أبعدتني – بهذا النوى رميتني – اني لابكي بمرارة ، لكن دموعي – مع ذلك لن تستطيع ارواء أرضي الحبيبة » .

« ايه يا وطني ، كيتيم بلا عزاء – أموت أنا هنا في البلد الغريب – فليتدفق اليك نهر دموعي ! – وليتألق دمي كالزهرة ! »

هذا هو مجنون ليلى ! مجنون الحب للحياة والوطن والانسان .

انه يرى الجمال في تدفق وجريان الحياة ، لكن دون أن تنعزل عن الانسان ، فكل شيء للانسان ، منه الانطلاق واليه الانتهاء .

– ٤ –

ولعل الانسان ، المثال ، ومثال الجمال الانساني قد تجسد عند الشاعر نفسه ، ليس في شعره فحسب ، وانما في كامل حياته . فهو حتى في السجن وفي انتظار الموت (لقد كتب يقول : انني كتبت دفتر مآبيت تحت شفار الموت) لا تفارقه روحه المرحة . انه في تمام العافيتين النفسية والروحية . فها هو يكتب اشعارا عن « السمكة المملحة » يمزج فيها المنطق بالفكاهة . وها هو يشكو امرأة تعذبه بفرط حسنها وسحر جمالها ، وبعد ان ينصحه الجميع بالزواج بها ، ما دامت تحب زوجها « كحبها للشيطان » ، ولكنه يجيب في النهاية : آه يا أخي ، لو كنت – في مكانك لقلت الشيء نفسه – ولكن أتعرف أين هي كارثتي – ان هذه اللعينة هي امرأتي !!

ومثل ذلك مقطوعته من « الساعة » التي تنتظر اليها الحبيبة النزقة باستمرار مختصرة لقاءات السعادة ومشوهة الفرصة باللقاء ، فيقول فيها « من أجل ان نبقى سعداء – عليك الا تنسي الساعة – كي لا نرى ابدا – كيف يحل الفجر ! »

وله مقطوعتان احداهما « البقرة والعاشق » حين يظل العاشق يجلب الزهور للبقرة ، بقرة الحبيبة ، بعد ان رمتها الحبيبة المتغنجة الدلعة من الشباك للبقرة التي ترفض بدورها ان تنال من الزهور شيئا مع شدة جوعها ، والثانية بعنوان « خديجة » وهي فتاة عصرية تضطر ان تاتي متأخرة ، يوما ما ، من نزهة ، فتجد البواب نائما ، فتعبر السياج ، لكن ثوبها المكوي الانيق يتمزق ، فتسخر الجارات منها في الايام التالية . مثل هذه المقطوعات التي كتبها الشاعر « في انتظار الموت » تدل على تعدد جوانب الجمال الانساني عنده ، وعلى صفائه الروحي ، وعافية نفسه . فالمزاج ، والحب ، واللوعة في فراق الوطن والحبيب والتغني بالبطولة ، كل هذا يخضع لعامل واحد هو سعادة الانسان والنوع الانساني . فهو ليس يحب الحياة ، اية حياة ، ولا يريد الحب أي حب ، انه يحب الحياة والحب وكل شيء اذا كان الانسان منتصرا في وطن لم تدنسه احذية الاعداء . ان مقطوعته عن « الفتاة الثلجية التي تذوب بين احضان العاشق الحارة ، وهو الشمس ، انما ترمز الى حب الحياة ، فمكان الفتاة تنبت زهرة ، وهو يريد ان يعمر وطنه بالزهور من « الربوع » حيث احببت وعشت كل السنين . وهو يستخدم كل شيء : الرموز والاساطير والواقع الحي والذكريات البعيدة والحديث اليومي ليمجد الانسان والحياة الانسانية .

على ان انسانية ووطنية جليل ليست تعصبية شوفينية فهو ينادي بالاخاء البشري . وفي مقطوعته « في بلاد الالمان » يعجب الشاعر من كون مواطن الماني ، مواطن لتيلمان وشيلر ، يضربه هو السوفياتي الاشتراكي . لكنه يفهم اين يكمن السر ، فالفاشست الذين استعبدوا الشعوب ، استعبدوا قبل كل شيء الشعب الالماني ذاته . واذن فلينهض ابناء شيلر وتيلمان :

« نوروا المانيا بالشمس
افتحوا الطريق للشمس في المانيا ! »

***

هذا هو الشاعر العظيم في مجموعته « دفتر مآبيت » . انه قبل كل شيء انسان كبير ، وفنان واقعي انساني ، لم يكتف بالكلمة سلاحا ، بل شفعها بالعمل والتطبيق ، وقدم روحه فداء لوطنه .

موسكو   **جليل كمال الدين**

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق . ل
الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
وحدي مع الايام	« «	٣٠٠
اعطنا حبا	« «	٢٥٠
ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠